

إذن فالأسئلة التي سألوها عنها لم يجيبهم عنها لأنه سبحانه قد عفا عنها . والعفو - كما نعلم - مأخوذ من عفى الأثر أى أذهب الأثر . وعفو الله من مغفرته ورحمته .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

وهذه الآية جاءت في السورة التي أحل الله فيها بيعة الأنعام ، وحرم منها ما حرم . فهو سبحانه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما يستغنى حياته من قوت ، وما يستغنى نوعه بالتزاوج . وإذا كان الحق هو الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض فقد أعد له كل هذه المقومات للحياة من قبل آدم عليه السلام ، أعد سبحانه خلقه الأرض والسماء والماء والهواء ، وما دخر ونخبأ وأوجد في الأرض من اقوات لا تنتهي إلى يوم القيامة .

ولما أن تلتفت إلى فارق مهم بين « الخلق » وبين « الجمل » . فالخلق شيء ، والجمل شيء آخر . والخلق هو إيجاد من عدم ، والجمل هو تجميع مخلوقاته إلى مهمة في الحياة . فخلق الله لا يخلقون شيئاً ، إنما الخلق والإيجاد له سبحانه . وعليها - نحن الخلق - أن نخصص كل شيء لمهمة في حياته التي أرادها الله ، أى أن نترك « الجمل » لله ولا نتدخل فيه ، بمعنى أن الخالق سبحانه وتعالى خلق الخنزير - على سبيل المثال - ليأكل من القافورات وليحمي الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ، وعمل الإنسان - إذن - أن يخصص الخنزير لهذه المهمة فلا يحوله إلى غير مهمته كأن يأكله مثلاً ، لأن تحويل مهمة مخلوق لله إلى غير مهمته هو أمر يضر بالإنسان الذي أراده الله سيداً مستخلفاً في الكون .

وأبلغ سبحانه الناس أنه قد أحل أشياء وحرم أشياء ، وعلى الإنسان أن يرضخ لما أحلله الله فيقبل عليه ، وأن يرضخ بالابتعاد عما حرم الله . والخالق سبحانه وتعالى هو الذي « خلق » وهو الذي « جعل » وهو القائل :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قِيَمًا لِّنَّاسٍ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة المائدة)

وهو القائل :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾

(من الآية ١ سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نجعل له أنداداً :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ آخِبِينَ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَزَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاتَّخِذَ بِهِ مِنْ بَثَرٍ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

فسبحانه وتعالى موجود وواحد أحد ، فلا يصح أن نجعل له أنداداً ، لأن ذلك عبث . وبشت لنا سبحانه أن قضية الفساد في الأرض تنشأ من تعدى الناس إلى الجعل المخلوق لله فيحولونه إلى غير ما خلقه الله له .

والخلق في حياتهم اليومية يحرصون على أن يستخدموا الأشياء فيها هي مخصصة له . ومثال ذلك : أنت تستقبل من صانع الجبن قالباً من جبن . وتستقبل من صانع الصابون قالباً من الصابون ، ثم تبيع بالجبن والصابون إلى المنزل ، فتعبر أهل البيت بأن الجبن للأكل والصابون للغسيل ، ويطلع الجميع هذه التوجيهات . لكن إن استخدم أحد الصابون للأكل والجبن للغسيل يحدث إفساد في صحة أفراد الأسرة . وكذلك جعل الحق سبحانه وتعالى لنا أبناء من أصلابنا ، فكيف نأخذ أبناء من غير أصلابنا لنجعلهم أبناء لنا ؟ إن هذا خطيئ في الجعل .

ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا جَعَلَ أَذْيَاءَ كُرْ أَبْنَاءَ كُرْ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

إن الدعي هو في حفيظة أمه من غير صلبك ، وزوجتك ليست أمّاً له ، فكيف تجعله ابناً لك ، ولتكنه من أن يجلس في حجر امرأة غير أمه ويشب على ذلك وينظر إلى غير محاربه على أن ذلك حلال ومباح له ، إنه بذلك يفقد التمييز بين الحلال والحرام ، لذلك فالتبني إفساد في الجمل .

إن كل فساد ينشأ في الكون حينما نجعل مخلوقاً لله في مهمة غير تلك التي جعلها الله له . والحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه الذي خلق الإنسان ، وخلق له ما بقيته ، وما يحفظ نوعه ، فعلينا أن نتبع ما يأمر به الحق من اتباع ما هو حلال ، والابتعاد عما هو حرام . وإن قال قائل : ولماذا حرم الله بعض الأشياء التي خلقها ؟ ونقول : إن الذي خلقها جعلها لمهمة غير التي يريد الإنسان أن يوجهها له ، ومثال ذلك تحريم أكل لحم الخنزير .

والإنسان منا إذا ما رأى صورة من ممشة الحيوانات في الغابة . يتعجب ، ففضلات حيوان هي غذاء لحيوان آخر . وسم الثعبان هو حاية وعلاج . ونعرف أن الإنسان يستخلص سم الثعبان ليستخرج منه علاجاً لبعض الأمراض ولقتل بعض الجراثيم .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْنَاهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ

أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفَتَّرُونَ ۝٥١﴾

(سورة يونس)

كيف إذن نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال ؟ إن الله الذي خلق كل شيء لم يمنحنا الإذن بذلك . فعلينا أن نسلم بأن كل شيء مخلوق لمهمة

فلا يصح أن توجه شيئاً إلى غير مهمته . وتوجيه أشباه إلى غير ما جعلت له أنتج آثاراً ضارة ، ومثال ذلك استخدامنا لمبيدات الحشرات في الحقول ، تلك المبيدات أبادت الضار في نظرنا ، وأبادت النافع أيضاً . وعلى الإنسان - إذن - أن يتنبه جيداً فلا يسلو بين الحرام والحلال ، وأن يتنبه تماماً فلا يتعدى الجعل المخلوق لله . يقول سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِجَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٢﴾

(سورة الناقة)

والبحيرة هي الناقة التي تُشق أذنها كعلامة على أنها محرمة فلا يتعرض لها أحد ، لا تُرد عن مرضى ، ولا تُرد عن ماء ، ولا يُشرب لبنها ، ولا يُركب ظهرها ، ولا يُجر صوفها ، لأنهم قالوا : نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر . وه السائجة ، وهي الناقة التي يقدمها الرجل إن برىء من مرضه أو قدم من سفره كنذر سائب ، فلا يربطها ، وتأكل كما تريد ، وتشرب ما تريد ، وتنام في أى مكان ، ولا أحد يتعرض لها أبداً ، وقد سميت « سائجة » بمعنى مأخوذ من الماء السائب . ونعرف أن صفة الماء وطبيعته الأساسية هي الاستطراق ، فإن سقط الماء على قمم الجبال فهو يملاً الوديان أولاً ، ثم يصعد إلى الأعلى ، هكذا يكون استطراق الماء عالم يتحكم فيه الإنسان بإقامة السدود والمضخات وشبكات توزيع المياه .

والوصيلة هي الناقة التي تصل أخاها ، فالناقة عندما تحمل وتضع المولود ، هنا ينظر أصحاب الناقة إلى جنس المولود ، فإن كان ذكراً أكلوه ، أما إن كان المولود أنثى فهي لهم يستبقونها لأنها وعاء إنجاب لتاج جديد ويكفى فعل واحد لإخصاب عشرات الإناث . فإن نتجت الناقة في بطن واحد ذكراً وأنثى فإنهم لا يذبحونها ويقال : « وصلت الأنثى أخاها » فحرمته علينا .

وفي ريفنا المصرى نجد الأطفال يتمنون أن يأتى وليد الجاموسة أو البقرة ذكراً حتى يأكلوا من لحمه وحتى يشربوا من لبن الجاموسة أو البقرة كما يهون . ذلك أن الطفل

ينظر إلى مصلحة الباشرة ، أما الكبار فهم يهتمون دائما أن يكون وليد البهيمة أنثى ، لأن الأنثى وعاء لنتاج جديد .

والد حام ، هو الفحل الذي يحصى ظهوره من أن يُركب ، ويتركونه لينطلق كما يريد . وهو الذي لقح عشرة أجيال من الإناث ، أو هو الذي نتجت من صلبه عشرة أبطن . وكان من الضوابط لهذه العملية أن يعرفوا أن حفيد هذا الفحل - ابن ابنه - يمكنه أن يلقح .

وكل هذه المسائل : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحمام ، هي من اختراعات أهل الكفر الذين يفترون على الله ، فالحق سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام ليستمتع الإنسان بأكلها وشرب لبنها وتسخيرها إلى ما يفيد.

ومعنى : يفترى الكذب : أى أنه يخلق كذباً ويدعيه لبطراً به على صدق ليخفيه
فالكذب ستر لحقيقة كانت قائمة . والحقيقة القائمة منذ أن خلق الله المخلوق أن هذه
الأنعام جميعها مسخرة لخدمة الإنسان ، وأبلغ سبحانه آدم بمجهته ، وكان من
المفروض أن يبلغ كل جيل الجيل الذى يليه . لكن طول الزمن والغفلة هما السببان
وراء نسيان الناس لبعض الأحكام ؛ لذلك بعث الله الرسل ليذكروا الناس بالنتيج ،
وليزيلوا الكفر عن وعى الناس ، فالكافرون أناس سمروا عنهج الله ، وستروا البلاغ
عن الله ، وهم بذلك يفترون الكذب على الله .

ومثال ذلك قصة دخول الأصنام إلى الكعبة ، فقد سافر رجل اسمه عمرو بن لُحَيٍّ إلى بلاد الشام ، فوجد أوثاناً وأصناماً فنقل منها صنماً يقال له : « هبل » إلى مكة ، وكان هو أول من أدخل الأصنام إلى مكة . وكما فعل عمرو بن لُحَيٍّ فعل غيره بوضع قوانين وقواعد لم يأت بها الله ، كالأصيلة والبحيرة والسائبة والحمام . وكان ذلك اختراعاً على منهج الله وتغشيراً لمنهج الحق ، وهل فرض أنه لا منبج قد وصلهم من الله ، ألم يكن من ضرورة التعقل أن ينظروا في أمر هذه البدع والضلالات ؟

إن الحق سبحانه وتعالى لم يمنح العقل من أن يصل إلى حقيقة كونية سنيمة . ولكن قد يجهل العقل ويتعب بالتجربة الطويلة حتى يصل إلى حقيقة ما . لذلك أراد

سبحانه حماية الناس من شقاء التجارب القاسية فانزل منهجه ليحدد الحرام من الحلال . قال سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ ٢٥٥ ﴾

(سورة التوبة)

ويقول في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ٢٥٦ ﴾

(سورة الفتح)

ولفائل أن يقول : لماذا إذن وجد في العالم أديان أخرى . كاليهودية والنصرانية ، ولماذا إذن هناك ملاحدة مادام الله قد قرر ألا يوجد مع الإسلام دين آخر ؟

ونقول : أنت لم تفهم مراد الآيتين الكريمتين ، إن الحق سبحانه يقول مرة أن الدين سيظهر ولو كره المشركون ، بمعنى ذلك أن هناك كافرين ومشركين ، وأهل ديانات أخرى وسيظهر الإسلام عليهم ، ويحمله الله هو السائد بالحجة والبرهان وشهادة الكافرين والملحدين والوثنيين أنفسهم ، لأن أمور الحياة ستجلبهم ل كل قضايا حياتهم ، ولا يجدون حلولاً لهذه المناهب إلا بأن يذهبوا إلى قضية الإسلام ، لا لأنه إسلام ، ولكن لأن أسلوب وقواعد الإسلام هي التي ستخلصهم من مشكلاتهم ، ولجوزهم إلى أفضية تتفق مع الإسلام - مع كفرهم بالإسلام - هو شهادة قوية على أن الإسلام جاء دين الفطرة ، ودين العقل ، وأن الكل سيحتاج إليه نهراً عنه . ومن لم يأخذه ديناً فسيخطر إلى أن يأخذه نظاماً .

وإذا كان الحق سبحانه قد قبل الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرها الإيمانية عنها بقوله عز وجل : « وأكثرهم لا يعقلون » فلأنه سبحانه ينهيها إلى أنهم لو تعقلوا الأمر لما جعلوا البحيرة والسائبة والوصيلة والحام من المحرمات عليهم .

ولنا أن نتساءل : أ جعلتم هذه الأشياء حراماً تكريماً لها أم زهداً فيها ؟ فإن كان هو الزهد ، فمعنى ذلك أنهم أخرجوها عما خلق الله ، لأن الله خلقها لتأكل لحسها

ونتفع بها . وإن كان هو التكريم ، فهل من التكريم أن يترك الإنسان الحيوان الذي
خدمه دون حابة من ذئب ، ودون طعام يعمه له ويتركه يلبغ في أرض الغير ؟ . إن
هذا أسلوب يدل على عدم الوفاء للحيوان الذي تعلم الإنسان ، ومثل هذا السلوك
لا يستبقى حياة هذا الحيوان ، بل يعرضها للخطر ، لهذا يأبى العقل السوي هذا
الزهد وذلك التكريم . فإن كان عمرو بن لُحَيٍّ أو غيره قد جاءوا بأشياء وتقاليد لم
يجعلها الله ، فعلينا أن نشكر الحق سبحانه لأنه جاء بالإسلام ليعدل من هذه
المسائل .

والمدقق للنظر في آيات القرآن يجدها تمثل برنامجاً معتمداً لحياة الإنسان على
الأرض ، وكأنها حاسب آلي يضبط إيقاع حركة الإنسان في الأرض بدقة تتخوف بكل
المقاييس على دقة أى حاسب آلي من صنع البشر ، ذلك المسمى « كمبيوتر » . إن
هناك « كمبيوتر » إلهياً يهتدى الإنسان من أن يضل أو يضل ، فالسما تعادل للإنسان
سلوكه إن ذهب بعيداً عن الصراط المستقيم . ولا يقولن إنسان : إنما أنا أتبع ما كان
عليه آبائي . لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى
الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ
كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾

بل على الإنسان إن يلتفت إلى أن أول تغيير لمنهج الله كان من أحد الأبناء الذين
أصابهم الغفلة . وقول الإنسان : إنما أتبع ما كان عليه آبائي ، هو قضية
منقوضة ، لأن الذي غير أول تغيير لم يقل : (حسبتنا ما وجدنا عليه آبائنا) لأنه لم يقلد
آبَاءَهُ ، وأيضاً فمن المحتمل أن الآباء لم يعقلوا ما غيروا من منهج الله ولم يهتدوا
إلى الحق .

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا آَلَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١٧)

(سورة البقرة)

إن الآية التي نحن بصدد خوارطها الإيمانية عنها : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا) لم يقل الله فيها اتبعوا ولكن قال : (تعالوا) أي ارتفعوا كأنهم انحطوا وتسفلوا بقولهم : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) إنهم بذلك يرفضون وينكرون كل ما باقى إليهم من غير طريق تقليد الآباء ، فقد تفلوا الطريق وسدوه على أنفسهم .

أما آية سورة البقرة : (بل نتبع ما آلفينا عليه آباءنا) فيحتمل أن يقولوا : وتبع كذلك ما جاء به الدين ، فالتكبر أشد على من قال : (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) .

وعلى هذا فالاستدراك من الله في كل آية من الآيتين جاء مناسباً لحالهم . كيف ذلك ؟ لأن الذى لا يعقل يمكن أن يعلم عن طريق شخص آخر استخراج واستنبط واكتشف ، فإنه إن فاته التعمق لم يفته أن يأخذ العلم من غيره ، أما الذى لا يعلم فقد باء ورجع بالجهل ، لأنه لم يصل إلى العلم بنفسه ، وكذلك لم يتعلم من غيره . وجاء - سبحانه وتعالى - بجملة الإنكار لمسألة اتباع الآباء دون منهج الله . ونلاحظ أن الحق جاء بعملية الهداية كأمر مشترك في الآيتين ، ذلك أن الهداية من السماء ، أما التعمق والعلم فهما عمليتان إنسانيتان .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا



فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

والحق سبحانه قد قال من قبل :
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَاءَنَا ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة المائدة)

والقولان يدلان على أن هناك فريقين : فريقاً يسير على الضلال ، وفريقاً يسير على
الهداية . وهناك معركة بين الفريقين . فهل تلوم هذه المعركة طويلاً ؟ نعم ستظل
هذه المعركة طويلاً ، لأن أهل الضلال لا يحبون أن يحب المؤمن لأخيه ما يجب
لنفسه ، وكذلك فهم يستطيعون من فساد الكون .

والمؤمن يجب الطاعة ومحاول أن يجعل اتجاه المؤمن محباً للطاعة ، فإن رآه على منكر
فإنه ينهيه عنه ويدفعه إلى المعروف ، فالخير حين يكون من الإنسان ينفع سواء ، وقد
يتأجل نفعه هو لنفسه إلى الآخرة . وخير المؤمن يقيد المجتمع ويضر أهل الضلال .
وصديق المؤمن يقيد المجتمع ويضر أهل الضلال . ونزاعة المؤمن يستفيد منها
المجتمع ، وتضر أهل الضلال . أما إن كان للمجتمع فاسداً فالمؤمن يشقى بفساد هذا
المجتمع .

إذن فمن مصلحة المؤمن أن يمدى الخير منه إلى سواء ، حتى يتشر الخير ويعود
الخير إلى المؤمن من حركة الخير في المجتمع . ولذلك قال الحق سبحانه : « عليكم
أنفسكم » أي الزموا أنفسكم ، وكان نفوس المؤمنين وحدة واحدة . وهو تعبير عن
ضرورة شمول الرتبة الإيمانية المتبادلة . ومثل هذا الأمر جاء في التعامل مع أحوال
السفهاء ؛ لقد قال الحق :

﴿ وَلَا تَزُولُ أَلْسِنَتُهُ أَمَّا لَكُمْ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لأن السفهاء لا حق له في إدارة ماله حتى يرشده ؛ لأن المال في الواقع هو مال كل
المسلمين ، وعليهم إدارته ليتنفع به كل المسلمين . وتكون إدارة الأمر أولاً بالنصح ،

لأن لم يرتدع السفية فليرفع عليه أقرب الناس إليه قضية حجر ، ذلك لأن أى شر ينتج من سلوك السفية بماله إنما يعود على المجتمع ، وعلى هذا فالمال يظل مال الناس يقومون على إدارته إلى أن يعود السفية إلى رشده فيعود له حق التصرف في ماله .

﴿ فَإِنِ انْتَهَوْا مِنْهُمُ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة التوبة)

لم يقل الحق إذن : « فادفعوا إليهم أموالكم » ذلك أن الرشيد أصبح عاموناً على ماله ، لذلك يعود المال إلى السفية من فور عودته إلى الرشيد . وكذلك قول الحق : « عليكم أنفسكم » أى أنكم يا جماعة المؤمنين كل منكم مسئول عن نفسه وعن بقية النفوس المؤمنة ، ومن الهداية أن تقوم الذى على فساد . ولا يقول مؤمن : « وأنا مالى » . وتتابع الآية « لا يضرركم من ضل إذا اهتديتم » فهاهم قد حاولتم تقويم الفساد فأنتم قد أدبتم ما عليكم فى ضوء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (١) .

ولكن كيف يكون التغيير بالقلب ؟ أى أن يكون تصرف الإنسان المؤمن هو المقاطعة لمن يخرج على منج الله ، فإن قاطع كل المؤمنين لئى خارج على منج الله فلا بد أن يرتدع ، وعلى المؤمن ألا يقابل منحرفاً أو منحرفة بترحيب أو تعظيم ، فالتغيير بالقلب أن يكون التصرف السلوكى الظاهرى مطابقاً لما فى القلب ، فيحس فاعل المنكر أنه مستهجن من غيره . وقد يستسهل الناس أمور الشر أولاً إذا ما صادفهم من يتفقهم بمجاملات فى غير محلها ، لكن لو امتشعر فاعل المنكر أنه مقاطع من جماعة المسلمين وإن لم تضربه على يده ، فلا بد أن يرتدع ، والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الأنعام)

أى أنك ساعة تعرض عن الذين يخالفون منج الله ، وساعة يعرض غيرك عنه ، فإن ذلك يؤذيه ، ولا يجعل الناس يستثرون فى الشر ويتفانم ويعظم ضررهم إلا

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه

سورة التوبة



احترام المجتمع لهم . والمثال في القرى نجد أن الذي يمتلك بندقية ينال احتراماً وعملات ليعمله يتجبر بسلاحه . ولو أن الناس أهرخت عنه لضاعت هيئته ولعاد مرة أخرى بسلك السلوك الملتزم . وما المقاييس في أمر التغيير بالقلب ومعاملة فاحل المنكر بعدم مودة ومحبة ؟

نقول : علينا أن نستمع إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم حين مثل مرة عن هذه الآية : « عليكم أنفسكم » ، فقال : « بل اتصروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك - ودع عنك العوام فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القايض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم » (١) .

وانت حين لا تؤلى منحرفاً عن منهج الله مودة ، ورحمة ، ومعروفاً تكون قد ألزمت نفسك بالإيجابية .

وإذا سأل المؤمن : وكيف يقاوم الإنسان ؟ أجاب العلماء : من قر من اثنين ، فقد قر . ومن قر من ثلاثة لم يقر . أى أن الإنسان في القتال إن واجهه شخصان فقراره حرب من المواجهة . وأما إن قر الإنسان وهو يواجه ثلاثة من الأعداء ، فهذه حماية للنفس وليست قراراً . واستنبط العلماء هذا الحكم من وعد الله بنصر المؤمنين إن كان أعداؤهم مثلهم أى كمددعم مرتين وذلك من قول الحق تعالى :

﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكَ اللَّهُ عَنَّا وَعَلَّمَكَ مَا نَفَعُكَ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا

بِأَثَرَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

(سورة الأنفال)

هى إذن نسبة الرجل إلى الرجلين ، فإن قر مؤمن من أمام اثنين في أثناء القتال فقد خرج عن موهود الله بالنصر له ويسمى قراراً ويؤى ويرجع بنصب الله ويكون ماله جهنم ؛ لأن الله قد قال : (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين) فقد وعد الله المقاتل المؤمن الصابر بالنصر إذا كان يقابل اثنين من الكفار . لكن إن هرب

من مواجهة ثلاثة فقد فعل ما يحى حياته ، لأن الدين لا يدعو إلى الانحمار ، لذلك نقول لمن ينفون تغيير المنكرات في الدنيا : لا ترموا بأنفسكم إلى التهلكة ولا تقتاتوا عدواً يظلمكم بكثرتة . واتبعوا قول النبي الصادق الأمين على استمرار أمته لمدامت تتمسك بمنج الله .

وتغيير المنكر بالقلب يمثل - كما قلنا - في مقاطعة المنحرف مصداقاً لقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم ، ونلاحظ أن « هل » حرف جر ، والكاف للخطاب ، والميم للجمع ، و« أنفسكم » منصوبة ، فعملكم هي « اسم فعل » أي هي ليست اسماً على حقيقته وليست حرفاً على حقيقته ، بل هي حرف دخل على ضمير قاذي يؤدى اسم الفعل ، أو هو اسم فعل منقول من الجار والمجرور .

« عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم » أي الزموم ، وحافظوا عليها ، ومن الهداية أن نعرف كيف نواجه القضايا بالمقيدة الإيمانية ، فننظر المؤمن إلى الكمية العددية للمهتدين ، والكمية العددية للضالين . فإن كانت الكمية العددية مساوية فلتقبل هل المواجهة . وإن كانت الكمية الضالة ضعف الكمية المؤمنة فلتقبل الكمية المؤمنة على المواجهة أيضاً . وإن كانت الكمية الضالة أكثر من الضعف فالمؤمن معذور إن حى نفسه بعدم المواجهة ، ولكن عليه أن يقطع كل منكر أو فاعل المنكر .

كلنا نعرف تماماً أن كل فرد يجب أن تكون له مكانة في المجتمع . فإن رأى الإنسان أن الضيعة والمكانة والذكر الحسن للصالح المستقيم فالإنسان يتجه إلى أن يكون صادقاً مستقيماً . وإن رأى الفرد أن المكانة في المجتمع تكون للكاذب المنحرف فهو يتجه إلى أن يكون كاذباً منحرفاً ، لذلك فعل المؤمنين ألا يكفروا إلا من يسير على المنهج الصالح . فقد روى الإمام أحمد قال : قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم) وإنكم تفسعونها عن غير موضعها ، وإن سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله - عز وجل - أن يجمعهم بغيابه) .

« لا يضركم من ضل إذا اعتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً » وطمئن الحق المؤمنين إلى أنهم إن قابلوا الضرر في حياتهم فليعلموا أن هذه الحياة ليست هي كل شيء ، بل هناك حياة أخرى ترجع فيها إلى الله ، فمن كان في جانب الله أعطاه الله مخلوداً أبدياً في النعيم ، ومن كان ضد منهج الله أعطاه الله عذاب الجحيم . وقال الحق ذلك لأن المؤمن لا يضمن نفسه في كثير من المواقف ، فقد يدخل معركة وفي نهة الإخلاص لكنه قد يتحرف ، فيصيبه الضرر على قدر ما نعرف .

وعلى الذين يسرون في ضوء منهج الله دائماً أن يحتفظوا بتلك القضية في بؤرة شعورهم . ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة حينما كان في خزة أحد ، وأمر الروما ألا يروحوا أماكنهم وإن رأوا المؤمنين في انتصار ورأوا الأعداء في هزيمة . واتجه الرماة إلى القتال من نور أن رأوا انتصار المؤمنين ، فلم ينصرهم الله وهم على مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وبذلك تعلم المؤمنون الفرس : أن يعطوا الله والرسول في كل خطوة .

ولو أن الله سبحانه لم يقل : « إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » . لماذا يكون موقف الذين لم يشهدوا نصراً لجند الله ، وهم قد دخلوا الممارك الأولى واستشهدوا ؟ لقد علموا من البداية أن المرجع إلى الله وأنه سيعطيهم حياة أخرى . وسينبئهم الله بما فعلوا . والإنباء هنا بمعنى الجزاء والتكريم .

وكما ساس الحق حياة المؤمن وهو يتحرك في الحياة الدنيا ، فإنه سبحانه يسوس حياة المؤمن بما يضمن له الحياة الآخرة في نعيم الخلد والجنة . لذلك يقول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدُوا بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَخْرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرِيْتُمْ فِي الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْيِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ
الْصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرْتَبَهُمَا لَنْفُسِي بِهِ
ثَمَنَا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا
لَمِنَ الْأَثِمِينَ ﴿١١٦﴾

الحق - سبحانه - كما ساس ودبر حياة المومن الدنيوية ، دبر وقوى - جل شأنه - حياته الآخروية ليلفته إلى أنه يجب عليه ألا ينظر إلى حياته العاجلة فقط ولكن عليه أن يدبر أمر نفسه فيما يستقبله من أمر الحياة الآخرة ، ففي لحظة مواجهة الموت عليه ألا ينسى الوصية إن كان مديناً لأحد أو كان له دين عند أحد . وكذلك إن سافر الإنسان ضرباً في الأرض فعليه أن يوصي حتى لا يضيع على ورثته حقاً لهم ، أو يسند ما عليه من دين لغيره ذمته . وأن يشهد على وصيته اثنين من المسلمين ، أما إذا كان الإنسان يصاحب في السفر أناساً غير مسلمين فعليه أيضاً أن يشهدهم على الوصية ، ولم يترك الحق لنا في هذا الأمر أي عذر ، بل لابد من شهادة اثنين . والشهادة هي الأمر المشهود في الحاضر ، ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ قَنْ شَيْءٍ مِنْكُمْ أَشْهَرُ فَلْيَصْمْ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة البقرة)

أي أن الإنسان إذا حضر الشهر وأدركه فليصم . والشهادة تأتي بمعنى الرؤية مثال ذلك قوله تعالى :

﴿ الرَّابِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾

(سورة النور)

أي أن يحضر مشهد الجلد جماعة من المؤمنين . وأن الشهادة أيضاً بمعنى الحكم :

﴿ قَالَ هِيَ رَزَاةٌ عَنِّي وَشَهِدَ شَاعِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَبَضَهُ قَوْمٌ فَكَيْفَ فَصَدَّقَتْ

وَهُرَمِنَ الْكُذِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَبضُهُ قُدٌّ مِنْ ذُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُرَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾

(سورة يوسف)

إذن فالشهادة تأتي بمعاني متعددة . والأصل فيها المشهد ، أى الشيء الذى تشاهده . والوصية - كما نعلم - هى إصاء بأمر مهم الموصى بالنسبة للموصى إليه . والمؤمن يوصى بالخير . ويسمعه من لا يرت . أى الذى ليس له شرعاً نصيب فى التركة ، لكن قد يكون تغير الوارث سبب من تسبب المنفعة مع المورث . وعلى الرغم من ذلك فالسامع للوصية يرى فتمت فيبلغ ما سمع إلى الورثة ، لأن الوصية هى مسألة فى نفس الموصى ، وقد لا يكون لها حيثة عند من يسمعونها أو يلقاها ولكنها ذات حيثة فى نفس الذى بقولها ؛ لذلك يجعل الله الوصية قبل الدين فى قوله الحق :

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ ﴾

(سورة النساء ١٢ الآية ١٢)

إن ذلك يحدث على الرغم من أن الدين مقدم على الوصية ؛ لأن الدين حق والوصية تبرع . ويريد الحق ذلك ؛ لأن الدين له مطالب سيطلب به ، ولكن الموصى إليه قد لا يكون صاحب حق ولكنه يتلقى تبرعاً بالوصية ، أو يكون حقه لدى الموصى غير موثق بصك أو شهادة ؛ لذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى ليجعلنا نهتم بأمر الوصية . أو يكون الذى وصى بشيء قد عاش فى الحياة ويعلم من من الناس أثر فى حياته علمياً أو أدبياً أو خلقياً أو اجتماعياً ؛ لذلك يريد الله سبحانه وتعالى ألا يارح الإنسان الحياة إلا بعد أن يؤدى المأمن هذا الحق الأسمى لمن كان له عليه يد فى دنياه . وهذه مسألة قد لا تشغل الورثة ، بل قد يكرهونها . لكن صاحب الوصية هو الذى يعلم حيثياتها .

ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد أمر الوصية حتى فى الوقت الذى يعز فيه التأكيد ، فأمر الإنسان أن يوصى بها إن كان بين أهله وقومه ، ويؤكد الحق أهمية الوصية أيضاً إن كان الإنسان مسافراً ، فإن أحس باقتراب الموت فله أن ينادى اثنين من أهل دينه ويوصيهم . وإن لم يجد أحداً من أهل دينه فليستبح وصيته اثنين من غير أهل دينه ، ولذلك مناسبة :

فقد حدث أن رجلاً مسلماً اسمه بديل بن أبي مريم مولى العاص بن وائل السهمي ، كان حل سفر مع خبر مسلمين وحضرت له مقدمات الموت فكتب ورقة ووضعها مع كل ما معه من متاع - احتياطياً - ونادى على اثنين من غير المسلمين وهما تميم الداري وعدى بن بداء ، وأوصاهما أن يسلما متاعه لأهله ، ومات الرجل . لكنّ الاثنين فتحا المتاع ووجدوا فيه إناء مفضضاً ومُدَّحِباً وله قيمة ، فأخذاه وباعاه بألف درهم راقساً المبلغ ، وسلموا المتاع لأهل الميت الذين عثروا على الورقة المكتوب فيها كل التفاصيل بما فيها خبر الإناء الثمين . وسأل أهل الميت الشخصين اللذين سلما المتاع عن الإناء فأنكرا أي معرفة به ، وأنكرا أيضاً أنها رأيا صاحب الإناء يبيعه . وبعد فترة عثر أهل الميت على الإناء معروضاً للبيع . وعرفوا أن البيع الأول كان من الشخصين اللذين حضرا موت صاحب الإناء . فذهب أهل الميت إلى رسول الله يمرضون عليه مسألة بحبائنة الأمانة في أمر الوصية ، فنزل قوله الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ إِخْرَانِ مَن تَحْيَيزُكُم بَإِن أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتُم مَّصِيبَةَ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّيِّنَ الْأَعْيُنَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إنه أمر من الله لرسوله أن يحضر هذان الاثنان من بعد أن يؤديا صلوات دينهما وأن يقسما بالله ، وأن يأتى أهل الميت ومعهم الورقة وليكشف الرسول الحق من الباطل . وقد أسلم تميم الداري من بعد ذلك وقص القصة وأحضر الخمسائة درهم التي كانت في ذمته والتي أخذها ثمناً لنصف الإناء وأحضر الخمسائة درهم الأخرى التي عند عدى ليردا ثمن الإناء كله إلى أهل الميت .

ولماذا قال الله : « تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصَّلَاةِ » ؟ إنه أمر بأن نحتجزهم من بعد الصلاة ؛ لأن الإنسان عادة بعد أن يؤدي الصلاة سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم تصفر نفسه بالاستعداد للصلاة بعد أن وقف بين يدي الله ، ويكون في هذه الحالة أقل اجترأ على الكذب ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

شهادة بينكم . أي الشهادة التي يختلف فيها الناس ويختلف فيها الأقوال بين طرفين ، ذلك أن كلمة « بين » تعني انفصال كائنين فيصير كل منهما طرفاً .

إن هذه الشهادة تحتاج إلى الفصل بين وجهتي النظر . والذي يقوم بهذا الفصل هو من يستجوب الاثنين اللذين من ذوى العدل من المسلمين أو من غير المسلمين ، ويتم الاستجواب من بعد أداء الصلاة . فإن صار الأمر الذي شهدا فيه واضحاً ، كان بها . وإن لم يكن قولهما واضح الصديق وفيه شك وريبة ، فعلى الشاهدين أن يقسما بالله أنها لا يشتريان بأيات الله ثمناً حتى لا يكونا من الأثمين .

ويقول الحق من بعد ذلك :

فَإِنْ عُرِجَ عَنْهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ
مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايْنِ
فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتِهِمَا وَمَا
أَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لِمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

فإن ظهر أن الشاهدين قد حرفا وصية الميت أو أخفيا بالكذب بعضاً من تفاصيلها ، فلنا أن نستدعي اثنين من أقرب الناس للميت فيقسمان بالله أن الشاهدين السابقين قد كذبا في الشهادة . وإن هذا الاعتراف بالكذب ليس افتراء ولكنه قائم على الحقيقة ، ولو ظهر أن شهادتهما فيها كذب فهما المستحقان لعقاب من يظلم غيره .

وبذلك يفسح الحق لنا المجال أمام إقامة العدل بأن نستقصي الصديق ، فإن ظهر لنا بدليل ما كذب الشاهدين اللذين حضرا موت صاحب الوصية ، فلنات بشاهدين